منهج الشيخ عبدالقادرالمغربي في تفسيره"جزء تبارك"

عبدالمجيد البغدادي*
ثناؤالله حسين**

أسرته:

كانت أسرة الشيخ عبد القادر المغربي أسرة علمية متدينة عريقة في الدين والعلم و الفضل و الشرف ،و أسرة القضاء والإفتاء والفقه، وكان أبوه الشيخ مصطفى بن أحمد بن عبد القادر بن عبدالرحمن بن عبد القادر بن عبدالرحمن بن عبد القادر بن عبدالله بن أحمد بن محمد المغربي التونسي من أسرة مشهورة معروفة بإسم"درغوث" أي باب الغوث في تونس ولكنها اشتهرت في الشام بإسم المغربي وهي محرفة عن "طورغود"إسم جدهم الأصلي و هو طور غود باشا الذي كان أمير البحر التركي توفي سنة 1564م/ 972هـــــ. وهو حسني و حسيني حسبا و نسبا وشعارا[1].

ميلاده ونشأته:

ولدالشيخ عبدالقادرالمغربي بن مصطفى المغربي من تونسي الأب و طرابلسية الأم السيدة أسماء كريمة الحاج عثمان علم الدين في اللاذقية. وهي كانت تقع على الساحل السوري حيث كان أبوه قاضيا. في رمضان 24من سنة 1284. الموافق ديسمبر سنة1867م[2] وقد قدم إليه شعراء اللاذقية تهنئة ولده ومنهم الشاعر اللاذقي عبدالرزاق الفتاحي فيقول:

هنئت يا مصطفى بطفل طالعه نادي يا سعاده
(المغربى) إن زدتة واحدا أنباك عن تاريخ ميلاده[3]

نشأ وترعرع في طرابلس الشام التي عاد إليها والده معه بعد أن تولى منصب القضاء في اللاذقية فيها وفي بيروت ثم فى الآستانة عاصمة الحكومة العثمانية وتربي في أحضان العلم والعلماء والفقه والفقهاء والفضل والفضلاء والقضاة، وخزانة الكتب التي حصل أبوه عليها من مصر والآستانة وغيرها.

تعليمه:

تلقى الشيخ المغربي تعليمه الابتدائي في بيتة من أبيه وفضلاء أسرته، وأكابرعلماءالبلدة . فكان والده يعني عناية بتعليم إبنه فهو يجمع له منتخبات منظومة من قواعدالعلوم المختلفة ويحضه على حفظها. ولماختم القرآن وهو في السنة العاشرة من عمره وحفظ طائفةكبيرة من المتون في شتى العلوم الشرعية والعربيةالعلمية المشهورة كالألفية والأجرومية والسنوسية وجوهرة التوحيد فالتحق بالمدرسة الوطنية في طرابلس وكانت هذه المدرسة أول مدرسة عصرية أسسها الشيخ حسين الجسرالعالم الكبير والمصلح الرباني وأحسن برعيتها وترتيبها وفقا لمقتضى العصرالحديث.

*أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية ، جامعة العلامة إقبال المفتوحة ،إسلام آباد، باكستان
**أستاذ مساعد ، قسم القرآن والتفسير، جامعة العلامة إقبال المفتوحة ،إسلام آباد ، باكستان

وقد دخلها معه السيد رشيد رضا صاحب تفسير المنار الذي كان صديقا حميما وزميلا في الدراسة الشيخ المغربي و قد ذكر رشيد رضا أ يام طفو لتهما في مقدمته للكتاب زميله "البينات" فهو يقول: "سبقني المغربي إ لى طلب العلم وسبقته إ لى مطالعة بعض كتب الأدب والتصوف والتاريخ قبل طلب العلم، ولما دخلت المدرسة الوطنية في طرابلس الشام كان هو في الصف الأول من تلاميذها، وكان الشعر و الأدب أول أسباب التعارف والتآلف بيننا، وكان موضع عجب مني في اجتهاده إذا شرع في حفظ درس يضع رؤوس إبهاميه فى أذنه وبقية أصابعه فوق عينيه حتى لايسمع صوتا ولايرى شيئا ثم يقرأ مايريد حفظه قراءة بصوت بين الجهر والمخافتة"[4]

وكانت هذه المدرسة لهاأثركبير ودور هام في الاصلاح والأدب واللغة وسبيل الحرية وانطلاق الفكرالعربي-[5]ولما أقفلتها الحكومة العثمانية فهاجرالأستاذ حسين الجسر إلى بيروت ولحق بالمدرسة السلطانية فتبعه المغربي مع زملائه وحينما رجع الأستاذ إلى طرابلس فتبعه التلميذأيضا-وفى هذه المدرسة كان عالما بارعا له يد طولى في الإصلاح والعلم وهو الشيخ أحمد عباس الأزهرى ناظرالمدرسة الذى استفاد منه الشيخ المغربي استفادا كثيرا وتعرف فيها بجريدة "العروة الوثقى" وصاحبيها السيد جمال الدين الأفغاني والأستاذ الإمام محمد عبده، ومن هنا نشأ في قلبه حبهما وإرادة اللقاء بهما وبعده دخل في المدرسة الرجبية طالبا.

والحق إن المغربي قد أخذ العلوم الدينية بحظ وافر في طرابلس من الشيخ حسين الجسر وفي بيروت الشيخ أحمد عباس الأزهري وتأثربهما وجريدة العروة الوثقى وصاحبيها، ولماسافر إلى الآستانه للدخول في بعض المعاهد وكان عمره خمسة وعشرون سنة، ولقي بالسيد الأفغاني ولبث هنا بجواره سنة كاملة فاشتد آراء الأفغاني في نفس المغربي جزورا .[6]

رغبته في العلم:

كان المغربي مولعا شديدا بمطالعة الكتب والجرائد والإتصال بكبارالعلماء لأنه لم كان يسمع عن أي كتاب قيم فلم يلبث حتى يحصل عليه، وينكب عليه ويلتهم مافيه ثمرات العقول، يجالسه ويناجيه كأن الكتاب أنيسه وجليسه وحبيبه وصديقه الصدوق ومطالعته هوالغر من حياته- فإنه و زميله محمد رشيد رضا هما إول من صل في طراابلس كتاب ميزان الإعتدال المطبوع الهندى و اشتدا بعد دراسته في إلقاء المحاضرات و المواعظ هتى سمى الشيخ المغربي الكتاب المذكور باسم '' المقول الذهبى'' - وكان حال مطالعته بأ نه ماكان يدرس كتباأ و جريدة إ لا يعلق على العبارات و الكمات لشرح معانيها و توضيح غمو ضها- وقد أ عانه الذوق السليم الفطرى و الذكاء الحاد منحه الله به.

و ماكان المغربي مطالعته محدودة بحدود كتب الدين و الحديث و الفقه بل هو كان يدرس كتاب '' النقش فى الحجر'' المؤ لفه الدكتور فانديك الذي يبحث في مبادي العلوم العصرية و الحديثة[7].

ومامن أمرعلمى تقع عليه عيناه فينسخه و يحفظه عنده، و لم يكن يغادر الكتاب سواء كان في السفر أو في البيت و قد تمضي أيام كثيرة و هو منكب عليه لايغادر بيته ولكن الكتاب لم يقطعه في مراحل عمره كلها عن صلته بالحياة فظل مولعا بدراسة الكتب-

رحلته إلى الأستانة ولقاءه بالسيد جمال الدين الأفغاني:

قدسمع الشيخ المغربي إسم جمال الدين الأفغاني وعرفه و كان تلميذا في المدرسة السلطانية التي أسست فى بيروت على أمر الوالى إسمه حمدى باشا عام 1882م الموافق 1300هـ.وكان ناظرالمدرسة آنذاك أحمد عباس الأزهري الشهير في بلاد الشام بالعلم و الفضل فرآه الشيخ المغربي يوما بين الطلبة في ميدان المدرسة مساء حينما يلعب بعضهم و يجلس بعضهم حوله وفي يده جريدة فسمعه يقول بين أيديهم عن العروة الوثقى و الغرض من إنشائها و صاحبيها ومكانتهما.

فرجع المغربي من المدرسة إلى طرابلس الشام سنة1310هـ وجاء بخبرجريدة العروة الوثقى وصاحبيها إلى صديقه الأقرب الشيخ رشيد رضا صاحب المنار وأخذ يبحث عن أعدادها ويحصلها من فضلاء طرابلس وينسخها من ألف حتى ياء منها ولكن شريكه فى هذا الحرص رشيد رضا لاينسخ إلا المهم من مقالاتها- حتى فرغ المغربي تماما من مطالعة جميع خزانته للكتب و طبع على نفقه الشيخ حسين الحبال صاحب جريدة أبابيل سنة 1338هـ .[8]

فكان الشيخ المغربي ورفيقه يدرسان مقالات "العروة الوثقى"دراسة عميقة و لم يلبثا إلا تأثرا لغويا وأسلوبا وفكريا من خلال سطورها آراء وأفكار فاشتاق قلوبهما إلى اللقاء بالأفغاني والحصول بعلمه ونصحه.

أما الشيخ المغربي فقام برحلته سنة 1892م/1310هـ إلى الآستانة يلتقي بالعلماء ويزورالمؤسسات العلمية والثقافية. ولقي به ولازمه ملازمة المريدين له وقضى بجواره سنة واحدة كاملة مستفيدا منه متاثرا بآرائه و أفكاره فهو واصفا سفره إلى الآستانة وماحدث به فيها:"بقيت على هذه الحال في طرابلس زهاء عشرسنين1301-1310هـ ثم برحتها إلى الآستانة لأجل الدخول في بعض معاهدها الدينية فمكثت ثم سنة واحدة اجتمعت خلالها بجمال الدين مرارا [9].

إرتقاءه و نبوغه في العلوم والفنون:

كان المغربي يستفيد كثيرا من الدراسة و كان دائم المطالعة لايقضي وقته إلا فيما يتعلق بالعلوم الشرعية والعصرية المفيدة. والأمر أنه أفاد من شيخه العلامة حسين الجسر فوائد قومت تفكيره ووجهته الوجه الصالحة وهو أول أستاذ دله على سبيل رقية العلم من حرية النقد وانطلاق الفكر فيتحدث المغربي عنه قائلا وقد كان شيخي الجسر مصلحا دينيا دقيق النظر، لكنه مع هذا بقي طول حياته محافظا متحفظا شديد الحذر. وأهم ما استفدناه من طريقته في الإصلاح يمكن تلخيصه مما وقع لي في زمن الحداثة وطلب العلم :

"ذلك أنني بعد أن تلقيت من دراستي على والدي الإستسلام إلى كل ما جاء في الكتب الموروثة عن أسلافنا الماضين، و التصديق بنصوصها من دون تردد ولا ارتياب، عدت فاقتبست من شيخنا الجسرتعاليم فيها شيئ من حرية النقد وانطلاق الفكر ، وقد تعلمنا أن النصوص الدينية الموروثة فيها الغث والسمين. وأن بينها ما هو غيرصحيح ولامعقول ولامنطبق على القرآن ولاالسنة النبوية الصحيحة ، فيجب الإنتباه إليه ، والتنبيه عليه ، والتحذير منه وتمييز غثه من سمينه ، وحقه من باطله. ولتمييز الحق من الباطل في نقل الأخبار طريقتان أولهما التدقيق في سند الخبر وروايته والثانية هوتدقيق النظر في إمكانية الخبر وعدم إمكانيته[10].

إن هذه النظرية إقتبسها المغربي من الشيخ حسين الجسر، مع أنه ولد ونشأ وترعرع فى بيت مقلد حنفى المذهب من أب أزهري لايسمع له هذا تماما . فيقول المغربي:

"وقدعلمنا أن ندقق الخبر ونعمق النظر، فليس كل نص يقبل سواء أ عقل أم لم يعقل . بل نزن كل ذلك بميزان القرآن والسنة وطبائع العمران (الله الذى أ نزل الكتاب بالحق والميزان)، بينما كان والدي رحمه الله بسبب تربيته الأزهرية لايسمح لي في أن أنحو هذا النحو في النظر والتدقيق و إعمال الفكر في التفريق بين النصوص الدينية" [11].

ومن عناية الله تعالىٰ أنه سافر إ لى الآستانه للدخول في بعض معاهدها العلمية للإنتظام في سلك القضاء ولكنه لم يقدر له، [12] فاتصل فيها بالحكيمين السيد جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده و تلمذ بين أيديهما فإن السيد الأفغاني كان حكيما وفيلسوفا في الإسلام وماهرا في الفلسفة الشرقية والعلوم الدينية و فنون اللغة العربية وبلا غتها. فقضى المغربي بصحبته سنة كاملة (١٨٩٢م) و تلقى منه علم الكلام والأصول والحكمة والأخلاق والسياسة و تمهر في الكتابة والخطابة والمحاضرة والمناظرة. ثم عاد إلى طرابلس عاكفا على آثاره ثم على آثارالشيخ محمد عبده حاملا دعوتهما إلى الحرية والإصلاح لأمة المسلمة وطريقتهما لها. فإن المغربي أخرجه السيد الأفغاني والشيخ محمد عبده وجريدتهما (العروة الوثقى) من طور إلى آخر من حياته وفقا لما قال المغربي في كتابه : "غير أني لما إتصلت بالسيد الأفغاني وأنعمت النظر في دراسة تعاليمه إنتقلت في حياتي الفكرية إلى الدورالثالث أو الطور الثالث وهو أن نفهم النص الديني فهما صحيحا، مراعي فيه اللغة وقواعد بلاغتها. وتستوثق من مطابقة النص للكتاب والسنة. ثم نجرأ على التصريح بما فهمناه من النص سواء أوافق رأى غيرنا أم لا. وقد إقتبسنا هذه الطريقة في الفهم من أقوال السيد الأفغاني وتعاليمه المروية والمبثوثة في العروة الوثقى أولا ثم في سائر ما علق بكفنا من كتابات تلميذه الشيخ محمد عبده ثانيا" [13].

يظهر في جميع ماسبق أن في حياة المغربي الدراسية ثلاثة أدوار.

الأول: دور دراسته المنزلية وبعض الدراسة في المدرسة السلطانية بيروت عام ١٨٨٢م/١٣٠٠ه. تلقى فيه المغربي علوم الدين الإبتدائية وحفظ من آيات القرآن والحديث النبوي ، وشتى المتون الدينية واللغوية والأدبية. فكان هذا الدور دور طالب مستسلم إلى كل ما يسمعه ويقرأه دون مناقشة وتعمق النظر فيه.

الثاني: دور حرية الفكر وانطلاقه ومحاكمة ما يسمع ويقرأ، فهو دور اجتمع فيه إلى الشيخ حسين الجسر تلميذا.

الثالث: دور التعمق والنظر في الدراسة والبحث، و المناقشة وهو دور اتصاله بجريدة"العروة الوثقى" الصادرة من باريس ، على يد الحكيمين السيد الأفغاني والإمام محمد عبده، واعطائه كل وقته دراسة وفهما وشرحا بعض كلماتها وتعابيرها فاختمرت آراءها على ذهنه وأكثر من الناحية اللغوية والأسلوبية ، وكل ذلك يتجلى فى كتاباته، ويشير إلى ذلك ما قال الشيخ رشيد رضا في مقدمته للجزء الثاني من كتاب البينات للمغربي: وأكبر ما أثر في أنفسنا وعقولنا وظهر أثره في إنشائنا لفظا و معنى جريدة العروة الوثقى لحكيمي الشرق و مجددي نهضته العلمية والأدبية والإجتماعية والسيا سية والدينية والإسلامية.

عودته من مصرإلى بلده طرابلس:

ولما أعلن الدستور العثماني عام ١٩٠٨م غادرالمغربي مصر في أوائل ١٩٠٩م عائدا إلى وطنه ليلقى من أهله فلبث فيه وواظب على الكتابة في كبريات جرائد حتى جاء مصر سنة 1934م عضوا في مجمع فؤاد الأول للغة العربية [14].

وأنشأ جريدة البرهان بطرابلس في سنة ١٩١١م وظل يحرر فيها حتى أن توقفت بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى سنة 1914م ثم اتصل بالوفد لطلب الحكومة إليه لتأسيس كلية إسلامية في المدينة المنورة فأسسوها ثم أسست كلية صلاح الدين الأيوبي بالقدس على جهود وزارة الأوقاف العثمانية سنة 1915م وكانت هذه كلية دينية وعصرية كان الغرض من إنشائها تخريج دعاة يجمعون بين الثقافتين الدينية والعصرية. فاشترك المغربي في تأسيسها وأخذ يدرس الآداب العربية وفنونها والسيرة النبوية حتى أنه انتقل إلى دمشق في عام 1916م وتولى مديرا لجريدة "الشرق" التي أنشأتها الحكومة العثمانية في نفس السنة وقام بمنصبه ولكن سورية غلب عليها الاحتلال الإنكليزي فلزم المغربي داره وانتهز الفرصة بتأليف"تفسير جزء تبارك" ولما أنشأت الحكومة السورية ديوان المعارف (المجمع العلمي العربي) واختارته عضوا لخدمة لغة الدواوين فأداها بأحسن صورة تامة وأصبح نائبا لرئيس المجمع الدمشقي وظل على هذا المنصب إلى أن توفاه الله سنة1956م وفى سنة 1932م أختير عضوا مؤسسا للمجتمع اللغوي (مجع اللغة العربية) في القاهرة، ودأب منذ افتتاحه سنة 1943م إلى حين وفاته على الاشتراك في لجانه والإسهام في أعماله. وفي عام1933م عهد إليه بتدريس اللغة العربية وآدابها في كلية الحقوق في الجامعة السورية. ثم عين رئيسا للمجمع الدمشقي مع إنه كان غير راض عنه لأنه يرغب في البعد عن الأعمال الأدارية وقام به حتى أسندت الرئاسة إلى محمد كرد فظل نائباله إلى مماته. أما سنة1941م فيها انتخب عضوا في المجمع العلمي العراقي

ببغداد. فكان يستمر القيام بأعماله في هذه المجامع الثلاثة بأحسن صورة من إلقاء المحاضرات و إرسال المقالات والبحوث العلمية إلى أن لقى وجه ربه الأعلى[15].

تدريسه:

فلما تقدمت كلية الحقوق و ترعرعت طلبت إلى المغربي عام 1933م أن يدرس فيها اللغة والآداب، وقد بلغ السادسة و الستين من عمره، فما تأخر و لاتردد، و إنما راح يرسل من منبر الجامعة جماع معلوماته واطلاعه و وقوفه على اللغة وآدبها وفنونها [16].

صفته:

كان الشيخ المغربي يتعمم بعمامة بيضاء ويكورها تكويرا يميزها من عمائم أهل دمشق. وكان ربعة في الرجال، حسن السمت، جميل الطلعة، حلوالمحيا، مستديرالوجه، وجهه كصباح الربيع كثيف اللحية و فى وجهه نور و رعب و عليه سيماء الهيبة والنجابة أبيض البشر أسود العينين، فيهما حدة ، قوي البنية حتى لم يحتج إلى عصا في المشية في آخر أيامه. و لم يستعمل نظارة، وبقي جوهري الصوت، وكان يلبس من الثياب الجيد النظيف.

وكان عالي الهمة مواظبا على العمل تبدو الحيوية في كل حركة من حركاته كما يبدو النشاط في كل خطوة من خطواته. وكان على تقدمه في السن دائم الحركة ، نشيطا يتحرى النكتة في حديثه ومحاضراته ومقالاته. يحب المشي رياضة يومية، يغدو إلى عمله ماشيا ويروح ماشيا، ويترك البيت كلما ضاق بما في البيت من كتب مرصوصة ويخرج إلى الخارج للنزهة بين بساتين الصالحية والربوة وحيدا أحيانا ، و مع أصدقائه أحيانا، وكان كثير المراسلات إلى الأصدقاء وإدارات المجامع العلمية وإدارات الصحف، كان غرضه منها مناقشة علمية أحيانا، والاستعلام عن العافية لهم [17].

طبائعه وأخلاقه:

كان المغربي عالما أديبا متواضعا صادقا في القول، مخلصا فى العمل، وصريحا جريئا فى قول الحق لايعرف المداهنة والغيبة والنميمة والكذب وغيرها من العادات تخدش الدينا والمروءة. و لم يجد الغرور والمغريات إلى نفسه سبيلا ، متحليا بإباء العلماء العازفين عن الشهرة ، الزاهدين في المديح وأهله ومن كان كذا يعرف بآثاره لايحتاج إلى تعريف.كما قلنا بأنه كان كثير المراسلات إلى الأصدقاء يستفسر فى بعضها عن عافيتهم وصحتم وفي بعضها يبحث بحثا علميا [18].

وكان وقورا بشاشا، حلوالكلام ، عذوب اللهجة ، طيب السريرة حسن الظن بالناس كان الناس يعرفونه بتقدمه في السلام على من لقي به. وكان كريما جدا يكرم ضيوفه ويبالغ في إكرامهم ، وكان روح الصداقة والألفة و المحبة من سجايا الشيخ القوية الراسخة فيه، فإن له أصدقاء كثر و ليسوا من دمشق فقط ، ولاشيئ أحب إليه من زيارة أصدقائه ومعارفه.

مذهبه:

سبق ذكر أسرة الشيخ المغربي إنها أسرة مشهورة بالإفتاء والقضاء منذ زمن بعيد و منصب مفتى الحنفية في تونس ثم في اللاذقية وطرابلس الشام تسلسل فيها يتوارثونه ولدا عن ولد من جده الأعلى يوسف درغوث (طورغود) من كبار علماء الحنفية في تونس حتى إلى أبى الشيخ المغربي مصطفى و كلهم مقلدون بمذهب الحنفية.

أما ولده الشيخ عبدالقادر لو كان نشأ وترعرع في بيئة دينية تقليدية وكان رغبة أبيه أن يكون فقيها محافظا على ماسلك آباءه وأجداده مذهبا ويقف عند النصوص الواردة في كتب الفقه الحنفي مستسلما دون مناقشة فيها لأن أباه كان أزهريا حنفيا. ولكن الولد بعد اتصاله بالمفكرين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده تأثر بآراءهما وآراء ابن عبدالوهاب النجدي تأثرا عميقا بدراسة الكتب لهم وصار مجتهدا فقيها غير مقلد وأخذ يجهر بهذا الفكر في كتاباته بجهد شديد، وقال في كتابه:

"يحاول قوم من الجامدين أن يأخذوا اولئك المتنورين بالتقليد الأعمى و أن يحملوهم على الإذعان والتصديق بمجرد نقل النصوص وسرد أقوال المتفقهين ولكن محاولة هذا منهم هي مقاومة الطبيعة والنجاح في أمر مقاومتها أمر مستحيل.عقل حر في نفسه، حر في تربيته ، حر في حكومته، حر في عصره، حر في الوسط الذي يعيش فيه. تكلفه أن يقلد غيره تقليدا أعمى؟ اللهم إن هذا تكليف ما لايطاق"[19]

فيظهر من كتاباته أنه يرى من الواجب على كل شخص مناقشة أقوال الفقهاء ، وعدم تسليمها بدون تحقيق و تقليد الفقهاء تقليد الجاهل. فالأساس الذي بنى عليه الإصلاح الديني إذن عنده هو تمييز نصوص الدين وفهمها فهما حرا صحيحا مستندا على قواعد اللغة العربية وقوانين بلا غتها . وكان يدعو إلى فتح الاجتهاد وإغلاق باب التقليد[20].

وفاته:

في أمسية من الأمسيات في سنة 1955م كان الشيخ المغربي يسير بمفرد في الطريق للنزهة والرياضة إذ أبصر إحدى السيارات الحوافل فبدأ يتقهقر فزلت قدمه و وقعت في هوة و أصابه صدمة مؤلمة شيديدة و عولج ثلاثة أشهر تقريبا في "مستشفى الجمهورية" الواقع في شارع عابدين بمصر، بإشراف زملائه من أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة. حتى إذا شفى عاد إلى دمشق، وحين مغادرته القاهرة قال لزملائه وهم يودعونه " لعل مجيئي إلى مصر إنما كان للوداع". فصدق ما حدسه فأصابه شلل بعد رجوعه إلى دمشق فلم يعش كثيرا ففاضت روحه ولقي وجه ربه في 7يونيو عام 1956م (27 شوال 1375ه) ففجع العالم الإسلامي وخسرت اللغة العربية و الأمة المسلمة والمجامع العلمية والصحف العربية بفقد العالم المصلح الفقيه المفسر اللغوي النحوي علما من الأعلام الأفذاذ بعد جهاد طويل لستين سنة من حياته على الأقل في خدمتها. عاش تسعة وثمانين عاما من عمره.

منهج الشيخ المغربي في تفسيره"جزء تبارك"

تحدث المغربي بنفسه عن آراءه التفسيرية وذكر أهدافه في تفسيره "جزء تبارك" والسبب لتأليفه و في الواقع لابد لكل دارس القرآن الكريم من الاتفاق برأي المغربي "أن جزء تبارك وجزء عم ، من أكثر الأجزاء شيوعا بين الطلاب و تداولا بين عامة المسلمين و أيدي صغارهم، وآيا تهما أشد علوقا بالنفس، وترديدا في الأفواه من سائر آيات القرآن الكريم، فمن ثم كانا جديرين بأن يفسر كل منهما تفسير حسن الوضع، صحيح الأسلوب، يقرب من أذهان العماة، ولا تتجافى عنه عقول الخاصة، فيقتصر فيه من القول على ما يكشف الغموض عن الآيات من جهة اللغة والإعراب ، ثم يشرح فيه المعنى المتبادر شرحا واسعا مجردا عن التنطع بالمشاغبات و إيراد الخلافات والخرافات"[21].

وقد اختار المغربي في تفسيره"جزءتبارك" أسلوب الشيخ عبده طرازه لجزء "عم" من سهل الفهم و المأخذ ليفهم الناس رسائل القرآن و أهدافه و ما ذهب إليه من لطائفه ومباحثه العميقة لأن القرآن الكريم أنزل لهداية الناس وزعامتهم الفكرية و إصلاحهم كما قال الله عزوجل في سورة البقرة [ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين. و شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان] (الآية2و158) وأن الذين يزعمون أن القرآن لايمكن لأحد الناس أن يفهم إلا من كبار العلماء والأئمة فزعمهم باطل لأن الشيء بدون مفهومه لايمكن كونه هدى للناس بل هذا محال.

والحق أنه كان متضلعا في علوم القرآن وله قدرة خاصة على مفردات القرآن فهو يشرح المفردات أولا و ثانيا ينقل آراء المفسرين والنحويين أيضا، وألقى ضوءا على قواعد اللغة العربية والفصاحة والبلاغة التي توجد في آيات القرآن و يعبر عن خصائص الآيات الأدبية في مواضع عديدة، واستفاد من التفاسير المختلفة في تفسيره.

إن الترابط و التناسب يوجد بين السور والآيات، وعندما سقطت أية آية أو سورة من مكانها انهار الترابط بينها و تخرب النظام بينهما لأن الآيات والسورة متنظمة في سلك واحد، فيكتب الشيخ المغربي عن تناسب الآيات و نظامها مايلى:

و أن آيات هذه السورة، بل آيات سور القرآن بجملتها كشذور الذهب ، وقد ألف بينها بلحام من المناسبات غاية في الدقة واللطف، و أقرب ما نستشهد به على ذلك قوله تعالىٰ هنا (وإليه تحشرون) فإن في هذه الآية لحام دقيق يصل بين الآيات[22].

ذكر المغربي نواحي عديدة من العلوم عند تفسير الآيات الكريمة مثلا هو يقدم هذه النكتة عندما يفسر آيتين لسورة الملك [أ أمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هي تمور] [أ أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير][23]

مهما ذكر رجال العلم الطبيعى للخسف و الزلزال وهبوب الرياح الزعازع عللا و أسبابا " فإن ذلك لا يمنع أن يهلك الله بها أقواما عصوا أمر الله و كذبوا رسله ، فإذا هلك قوم بزلزال شديد و كانوا

طغاة فاجرين نقول إن الله أهلكهم بالزلزال لسوء صنيعتهم و قد نشأ الزلزال نفسه عن انفجار أبخرة و غازات كانت متجمعة في تجاويف الأرض ، أو نشأ عن انخساف الحدي طبقات الأرض المكونة من صخور هشة رخوة، فتداعت الطبقات العليا المتراصة فوقها، فحدث الزلزال، فتهدمت البيوت و هلك الناس[24].

فاعتنى المغربي في تفسيره "جزء تبارك" بناحيتين.

1- : الاستشهاد بمفردات القرآن الكريم.

2-: الاستشهاد بأشعار العرب ولا يمكن المفسر أن يفسر الآيات بدونهما.

الأولى: جاءت كلمة "طباقا " في سورة الملك، يقول المغربي عنها أن لفظ "طباقا " و مصدر طابق النعل خسفها وجعل كل طبق منها حذو الطبق الذي يليه ، أو هو جمع طبق كجبل و جبال أو جمع طبقة مثل رحبة بالتحريك و هي الساحة إذ يقال في جمعها رحاب.

و قد يفسر كلمات الآية من جهة النحو و الصرف بألفاظ سهلة وجيزة جامعة مثلا كلمة (الدنيا) التي جاءت في آية (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح---) فيفسرها " الدينا" تأنيث الأدن و هي صفة للسماء ، أي السماء التي هي أقرب إلينا من سائر السموات[25].

والمؤ لف يذكر المعاني العديدة لكلمة ، قد يذكر رأيه هكذا "سحقا " أي بعدا وهلاكا وهي من كلمات الدعاء والتفريع مثل تبّا و جدعا ، يقال في ضدها سقيا ورعيا ، وأصل معنى "سحقا " أسحقه الله سحقا ، أي أبعده من رحمته إبعادا و من السحق بمعنى البعد قولهم " مكان سحيق" أي بعيد. و" نخلة سحوق" أي طويلة ومعنى الآيات أنه كلما ألقى في جهنم جماعة من المكذبين سألهم القائلون عليها سؤال توبيخ و تقريع. (أ لم يرسل الله إليكم رسولا؟ فيقولون بلى أرسله إلينا فكذبناه و أفرطنا في التكذيب).

وقد ذكر المغربي أسباب مسميات الألفاظ و كيفيتها لكي يفهم الدارسون بغير صعوبة كما يكتب عن لفظ (الشهيق) الصوت الذي يتردد في صدر المرء وهو يبكر و يخرج من الجوف بشدة ، ولذلك يسمى نحيق الحمار شهيقا.بين المغربي كنه الكلمات مثلا " النكير" يبحث فيه بحث قيما رائعا، لأنه يتعمق في طبائع الأ لفاظ بجهتها اللغوية وتطوراتها العصرية فيقول عن النكير " هو إسم لتنكر تنكرا تسر إلى آخر بسوء ، و تنكر لي فلان لقيني لقاء بشعا ، فمعنى التنكر قريب من الحقد والسخط على شخص بعد الرضى عنه ومن تسخط عليه تنتقم منه وتنزل به العقاب ، فالتنكر من جانب لايصح أن يراد منه انفعال النفس و إنما يراد به لازمة هو الإهلاك و انزال العذاب و من ثم قال أبو مسلم الأصفهاني: النكير المذكر، و هكذا يقال في مكر الله بهم و غضب عليهم و رضى عنهم وضحك عليهم [26].

هكذا عبر المغربي رأيه في كثير من الكلمات القرآنية و ذكر معانيها اللغوية والمرادية ، وقدم نظائرها من أشعارالعرب استشهادا بها ، وكذلك هذه التحقيقات منتشرة على جميع صفحات "جزء تبارك".

الثانية: الناحية الثانية القيمة لجزءتبارك أي الاستشهاد بأشعار العرب وهي أشد حاجة لتفسير الآيات القرآنية لأن ثقافة العرب وحضارتهم و أحوالهم السياسية والاجتماعية و نشاطاتهم توجد في أشعار العرب، فمن ثم يقال "الشعرديوان العرب" ولا يمكن تفسير آيات القرآن الحكيم بغير معرفة ثقافة العرب و حضارتهم فهذا المنهج يوجد عند الصحابة و المتقدمين و السلف و المتأخرين.

قال الله تعالىٰ في سورة القلم [بأيكم المفتون] يستشهد المغربي في تفسير الآية بأشعار إمرئ القيس والأعشى فيقول المغربي : معنى"بأيكم المفتون" من منكم هو المجنون؟ ولكن الوصول إلى هذا المعنى يكون بأحد طريقتين: إما يجعل الباء صلة زائدة كما هي في قوله تعالى: [وهزي إليك بجذع النخلة] وقول إمرئ القيس " هَصَرتُ بِغُصنٍ ذي شَماريخَ مَيّالِ" [27]وقول الأعشى: ضمنت برزق عيالنا أرماحنا [28].

واطال المغربي هذا البحث بطريق علمي وهو مفيد جدا للدارسين [29].

قوله تعالى [حلاف مهين] يقول المغربي"حلاف" قد يكون المراد منه أنه كذاب، و أنه من الكذب في أقبح حالاته، فهو يكذب و يدعم كذبه بالحلف بالله ويروج باطله بذكر إسمه تعالى وهو استخفاف منه بمقام ألوهية ، وجهل بعظمة الله وما يجب لإسمه الكريم من التوقير و التعظيم ، و لايكثر الحلف عادة إلا من عرف أن الناس لايصدقونه فيما يقول، فهو يحلف لهم ليصدقوه ، فكثرة الحلف مظنة الكذب قال الشاعر:

وأ كذب ما يكون أبو المثنى

و اذا آلى يمينا بالطلاق[30]

قوله تعالى [وتبتل إليه تبتيلا] يقول المغربي في هذه الآية : التبتل بمعنى الانقطاع عن الدنيا إلى الله ومنه " البتول" لقب السيدة مريم عليها السلام ، وقيل سميت بها لانقطاع عن الزواج و يقال بتل إلى الله كما يقال تبتل وجاز أن يؤكد تبل بالتبل ميلا مع هذا المعنى ومراعاة لحق الفواصل كما في قوله تعالى [والله أنبتكم من الأرض نباتا] وهذا الأسلوب يوجد في كلام الشعراء أيضا ومنه:

وخير الأمر ما استقبلت منه

و ليس بأن تتبعه اتباعا [31]

في هذا الشعر" متتبع" من التفعل و"اتباعا" من الافتعال[32]

قوله تعالى [السماء منفطر به] السماء من أسماء التأنيث ولكن تستعمل منكرا وفي كلام العرب أيضا قال الشاعر:

فلو رفع السماء إليه قوما

لحقنا بالسماء مع السحاب [33]

هنا " السماء " فاعل (رفع) و لم يقل رفعت ، وذكر خبره "منفطر" مذكرا [34]

وقد يأتى المغربي بآراء النحويين من الكو فيين والبصريين بحسب حاجة إليها مثلا قال عن قوله تعالى [عينا يشرب بها عباد الله] و فعل "يشرب" يتعدى مفعوله بنفسه تارة فيقال يشربها وبالباء تارة كما سبق في الآية فيقال يشرب بها و منه قول عنترة في ناقته:

شربت بماء الدحرضين فاصبحت

زوراء تنفر عن حياض الديلم[35]

فاستشهد المغربي بـــ" ماءالدحرضين" وذكر قول البصريين، وقال البصريون: الباء في الآية و في قول عنترة و أمثالهما زائدة كزيادتهما في قوله تعالى[أ لم يعلم بأن الله يرى] و فى قولهم " تكلم فلان بكلام حسن" فيجوز حذف الباء في الكل [36].

و اتضح من البحوث المذكورة أن هذا التأليف" أي تفسير جزء تبارك" للمغربي له أهمية هامة ، وقد اختار فيه المغربي طريقة المفسرين الأولين من رجال مدرسة أبي عمرو بن العلاء و أبى عبيدة صاحب " كتاب المجاز" الذين يمزجون التفسير بالآداب و يتفهمون القرآن بأساليب العرب و تفسيره كتفسير الشيخ محمد رشيد رضا و تفسير شيخيهما الأستاذ الإمام محمد عبده و هي من التفاسير الحديثة التي سار فيها أصحابها على مذهب السلف، و رائد هذه الطريقة في العصور المتأخرة الإمام أبو الثنا الآلوسي في العراق ، و الشيخ جمال الدين القاسمي في الشام و سلك في هذا الطريق مسلكا ارتاه ، ولكن جماعة من العلماء خالفوه فيه قديما و حديث ذاهبين إلى أن ملذات الآخرة كملذات الدنيا التي سيتمتع بها أصحاب الجنة جسما و تلذها الجوارح لا كما يقول المغربي من أنها ملذات روحية و روحانية و كذلك ألف المغربي كتابا بعنوان" على هامش التفسير" يشتمل على عدة موضوعات تربطها كلها وحدة عامة هي أدب القرآن الكريم وهي خمسة عشر موضوعا و أولها " الحجج الظاهرة في ما هي ملذات الآخرة " و فيه عرض المغربي آراء ثلاث فرق بأسلوب رشيق محبب إلى قلوب القراء ، مهما يرون عن الجنة و جهنم و ما فيهما و أنا حريص كل الحرص على أن يكون هذا الكتاب في يد كل دارس للتفسير في مدارسنا و جامعتنا .

الخلاصة :

قد نهض المغربي بتفسير سور من القرآن الكريم و انتهج في تفسيره منهج الشيخ الإمام محمد عبده في التفسير، و أيقظ المسلمين من الإهمال والغفلة و اشتد مخالفته لمن قال إن تفسير القرآن الكريم لا يقبل التأويل والعقل .

وقد خالف بعضا من الصوفيين الذين يعتقدون الذوق والمكاشفة ويشتهروا بعشق الحضرة الإلهية والاستغراق في تقديس الذات الأحدية ، ويلبسون على تأويل الآيات القرآنية لغة لا تحمل إلا معان غير واضحة مثلا يقولون عن جميع الأشياء الموجودة في الجنة ، لها معاني أخرى وراء ما يستفاد منها لغة .

فنفد المغربي هاتين العقيدتين وقال إن هذه الفرق وإن هذه الأساليب في التفسير باطلة . لأن الله أنزل القرآن لإصلاح عباده وطالب منهم أن يتدبروا في معاني آياته ومفاهيمها . وفهم القرآن لا بد له من علم اللغة العربية.

هوامش

1. أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث: العلامة احمد تيمور باشا ص 236-244. وعجائب الثار في التراجم و الأ خبار: عبدالرحمن الجبرتي 187/1، لجنة البيان العربي 1958م .والمحاضرات عن عبد القادر المغربي : محمد أسعد طلس ص 7-11.
2. أعلام النشر و الشعر في العصر الحديث: يوسف كوكن 338/2. والأعلام الألف135/2، و قدماء و معاصرون ص 273، و مجلة '' الأ ديب'' مايو 1967م.
3. يعني 1283+1=1284هـ.
4- كتاب البينات للشيخ المغربى 2/المقدمة.
5- المجددون في الإسلام: عبد المتعال لصعيدي ص 539-544 المطبعة النمو ذجية، سكة السابوري بالحلمية الجديدة ، القاهرة بدون التاريخ.
6- جمال الدين الأفغاني- ذكريات وأحاديث للشيخ المغربي ص 25.
7- ماهنامة معارف ص 335-339،عام 1938م ،أعظم كره.
8- جمال الدين الأ فغاني ، زكريات و أحاديث للشيخ المغربى ص ١١- ١٧
9- نفس المصدر ، ص: 25.
10- نفس المصدر ، ص: 43-44.
11- نفس المصدر، ص: 43-44.
12- إن المغربي لم ينجع في طلب القضاء ولو نجح لحال منصب القضاء بينه و بين انصرافه إلى التحرير و الكتابة والصحافة ولحرمت الأمة من أعماله وآثاره العلمية والأدبية مثل" كتاب البينات".
13- جمال الدين الأ فغاني- ذكريات وأحاديث للشيخ المغربي ص: 45.
14- كتاب الاشتقاق والتعريب ص:3.
15- المحاضرات عن عبد القادر المغربي ص: 13-24.
16- نفس المصدر ص: 23.
17- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق 40/ 352-356، سنة 1965م.
18- نفس المصدر،40/ 352-356، سنة 1965م.
19- البينات 11/1.
20 - جمال الدين الأفغاني - ذكريات وأحاديث ص:100،98,62،61.
21- جزء تبارك ص:2.
22 -نفس المصدر ص:13.
23-سورة الملك ،الآية:16ا-17.

24 - جزء تبارك ص:10.

25 - نفس المصدر،ص : 5.

26 -نفس المصدر،ص : 6،7،10.

27 - ديوان إمرئ القيس ، ص: 125،دارالكتب العلمية ،بيروت ،لبنان.

28- الجواليقي ، شرح أدب الكاتب لابن قتيبة، ص: 15، دارالكتاب العربي ،بيروت.

29 -تفسيرجزء تبارك ،ص: 17.

30 -أبو يعلى التنوخي، القوافي،موقع الوراق،ص:1.

31-الجواليقي ، شرح أدب الكاتب لابن قتيبة، ص: 305، دارالكتاب العربي ،بيروت.

32 - تفسيرجزء تبارك ،ص: 17.

33- منسوب إلى علي ابن أبي طالب ، مجالس الزجاجي ،ص:75والبحر المحيط 83/1.

34- تفسيرجزء تبارك ،ص: 117.

35- الزوزني، شرح المعلقات السبع ، ص:253،داراحياء التراث العربي ، بيروت.

36 - تفسيرجزء تبارك ،ص: 80-81.